المعركـة : نصوص مختارة من الظلال

إعداد وتنسيق : الأخ محمد هلال

توطئة

لفهم أي صراع عقيدي لا بد من تحديد ثلاثة مفاهيم رئيسية : ما هي العقيدة المعنية وماذا تريد ؟ من هم أتباعها ولماذا يتبعونها ؟ من هم أعداؤها ولماذا يعادونها ؟ .. ولا شك أن الإجابة على هذه الأسئلة لا بد منها لكل دراســة موضوعية لتاريخ هذه العقيدة ولحاضرها ، وهي من باب أولى ضرورية لكل من يشكل طرفاً بالنسبة لها : مؤمناً كان بها أو عدواً لها . ولا شك أن كل دراسة لعقيدة لم تجب أولاً على هذه الأسئلة الثلاثة ستخفق في مرادها ، ولا شك أن كل دعوة لهذه العقيدة لم تحدد الإجابة على هذه الأسئلة ستقع في تخبط عقائدي مرير وتنوء بالفشل الذريع .

وعلينا إذن لكي نفهم الإسلام ولكي ندعو إليه أن نجيب على هذه الأسئلة : ما هو الإسلام ، ماذا يريد من الناس –ما دوره في حياة البشرية ؟ من هم المسلمون ولماذا يريدون الإسلام ؟ من هم أعداء الإسلام– لماذا يحاربونه وما هي وسائلهم في حربه ؟ والإجابة على هذه الأسئلة هي المنطلق العقائدي الأساسي الذي لا بد منه لكل داعية مسلم حتى يكون على علم بحقيقة دعوته وحقيقة الصراع الذي تواجهه .

ولقد كانت هذه المعاني واضحة تماماً لصاحب الدعوة الأول ﷺ ولأصحابه رضوان الله عليهم . ذلك يوم كـــان مفهوم (لا إله إلاّ الله) واضحاً تماماً ومفهوماً للناس بإدراكهم لمعناه اللغوي الحقيقي ، ويوم كان الصراع العقائـــدي صراعَ مواجهة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، ولم تدخل فيه طرائق التمويه والتمييع العقائدي ، وكان أقصى ما استطاعه جاهليو العرب هو أن يقدموا تهماً متهافتة كاتهامه ﷺ بالسحر والشعر والكهانة والجنون ..

ولكن هذه المعاني أصبحت غامضة للناس اليوم واختُزلت اختزالاً شديداً وصل إلى حد التشويه الذي لم تعد الرؤية خلاله واضحة إطلاقاً ، ويعود ذلك إلى عاملين :

الأول : عامل داخلي ناتج عن (نقض الدين عروة عروة) وابتعاد الناس شيئاً فشيئاً عن حقيقة الإسلام ، مما جعل المفهوم العملي للإسلام يقترب شيئاً فشيئاً من حقيقة الواقع العملي للمسلمين ، ويبتعد شيئاً فشيئاً من حقيقته النظرية (في الكتاب والسنة) حتى أصبحت الهوة عميقة لا يمكن عبورها بحال .

الثاني : عامل خارجي يتمثل في عملية (التمييع العقائدي) : فمما لا شك فيه أنه لفهم عقيدةٍ ما يجب الرجوع إلى مصادرها النظرية –وهي هنا الكتاب والسنة– لا إلى الواقع العملي لمن يتبعونها الذي قد يقترب أو يبتعد من حقيقتها

بقدر اقترابه أو ابتعاده من توجيهات مصادرها النظرية . فتمثيل الإسلام -إذن- بالواقع العملي لمتبعيـــه هـــو خطـــأ منهجي لا شك فيه .. وأعداء الإسلام يعلمون ذلك تماماً ويدركون مقدار الخطر الذي يمثله تنبه النـــاس في الرقعـــة الإسلاميّة لهذا الأمر . لذا فهم يعلمون دائماً على إخفاء هذا الخطأ المنهجي بشتى الوسائل وأهمهـــا رفـــع اللافتـــات الإسلاميّة على الأوضاع غير الإسلاميّة .

ولا شك أن الدعوة الإسلاميّة إنما تقوم أولاً على تبيين حقيقة الإسلام ودعوة الناس إليه ، فهي تقوم أولاً علـــى كشف الغطاء عن الحقيقة التي يعمل كل من الواقع الحالي (للمسلمين) والجهد المتواصل لأعدائهم على إخفائها وهي حقيقة دعوة الإسلام .

ولا شك أن الشهيد سيد قطب رحمه الله كان من أسبق علماء هذا القرن ومن أبرز نجاحاً في توضيح هذه الحقائق بأسلوبٍ ناصع قاطع وفي التعبير عن حقيقة الإسلام بلُغة عصرية وبمعان عقائدية محددة .. ومـــن ثم بمنـــهج حركـــي واضح .. وذلك كله استناداً إلى الكتاب والسنة .. ونجد ذلك متفرقاً في (الظلال) ومجموعاً في (المعالم) الذي يعتـــبر بحق تركيزاً للمنطلقات العقائدية للحركة الإسلاميّة .. هذا النوع من الكتب كان من الخطير على الجاهلية إلى الدرجة التي أودت بحياة الشهيد رحمه الله .

وهذه فصول اخترت من (الظلال) لتجيب على الأسئلة المطروحة .. وقد قسمنا البحث على أبواب :

فالباب الأول عن حقيقة الإسلام وحقيقة دعوته

والباب الثاني : لماذا نريد الإسلام ؟

والباب الثالث : عن معركة الإسلام مع أعدائه .

وينقسم الباب الأول إلى ثلاث حلقات :

الأولى عن معنى الدين وحدّ الإسلام وشرط الإيمان

الثانية عن المفاهيم الخاطئة لدى الناس عن الدين

الثالثة عن مقتضيات الفهم الصحيح للدين

وفي الدرس الأول من الحلقة الأولى يتعرض الشهيد سيد قطب لتحديد معنى الدين وحد الإسلام وشرط الإيمان . هذه الأمور الأساسية في مفهوم الإسلام والدعوة الإسلامية التي بهتت على مر الزمان ، فيعيد إليها معناهـــا الحقيقـــي وهو الطاعة والانقياد للقيادة الربانية فالدين هو الدينونة لله أي الخضوع له ، والإسلام هو الاستسلام لله أي الانقيـــاد له والإيمان هو الإيمان بالله وألوهيته والحاكمية مقتضى الألوهية [1]

وإذن فالانقياد لله عزَّ وجلَّ هو مدلول الإسلام وهو ما يعبر عنه الشهيد سيد قطــب بـ (الحاكميــة) .. ﴿ ... **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٤٠]

ونود هنا أن نوضح المقصود (بالحاكمية) التي هي خاصية من خصائص الألوهية . لقد غلب على كلمة الحكــم استعمالها بمعناها الاصطلاحي وهو العلاقة التي تمارسها الدولة ومؤسساتها تجاه الرعية . وهذه لا شك نوعية من أنواع الحكم ولكن الحكم بمعناه العام يشملها ويتعداها . ولعل الاستعمال الفقهي أقرب في عمومه إلى حقيقــة مفهــوم الحكم . فالحكم على أمر ما هو تقرير الموقف منه . والحاكمية –التي هي لله عزَّ وجلَّ– هي تقرير الحكــم –بهــذا المعنى– في كل شأن من شؤون الإنسان ، فهي تقرير الحكم على التصورات وهذا يشمل العقائد والقيم والمــوازين ، وعلى الأفعال وهذا يشمل الأخلاق والعبادات والمعاملات والأنظمة .. وهكذا يــشتمل معــنى الحاكميــة المعــنى الاصطلاحي ويكون لا بد من تلقي الأنظمة والقوانين من الله عزَّ وجلَّ ، ويتعداه بحيث يجــب تلقــي التــصورات والعقائد والأخلاق والعبادات منه أيضا .

واحتكام العبد إلى الله عزَّ وجلَّ يكون بتلقي ذلك كله من الله عزَّ وجلَّ وذلك بتلقــي التــصورات والعقائــد والأخلاق والعبادات والمعاملات منه تعالى من ناحية ، وبالعمل على إيجاد دولة مسلمة لا يتم تطبيق أحكام الإســلام إلاّ بها من ناحية أخرى من باب ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب .. بهذا المعنى الشامل يجــب أن يُفهــم معــنى (الحاكمية) التي هي إحدى خصائص الألوهية فحاكمية الله للعبد هي استسلام العبد أصلاً في الضمير لله عزَّ وجــلَّ ، والحكومة الإسلامية تعبير لازم عنها في عالم الواقع المادي ، زيادة على امتثال المسلم الدائم لأحكام الإسلام في حياته.

والدرس الثاني يتناول تطبيق هذا المفهوم على عامة الناس وتحديد شرط إيمانهم وهو الرجوع في أمرهم كلّه إلى الله عزَّ وجلَّ والتحاكم إليه ..

أما الدرس الثالث فيتولى تطبيق مفهوم (الحاكمية لله عزَّ وجلَّ) على القائمين بالحكم –بمعناه الاصطلاحي هنــا– حيث هو بهذا المعنى التعبير الأكمل عن حق تقرير الأحكام للناس وتسييرهم تبعاً لها –حتى كاد معنى الحكم يكــون محصوراً في أذهان الناس بهذا المعنى لعظمته وأهميته– .. هذا الحق الذي ينــزعه الإسلام من البشر ويعطيه لله عزَّ وجلَّ ليكون الدين –أي الخضوع– كله لله ، في كل شأن من شؤون الحياة .

ونودّ في هذا الجانب أيضاً أن نوضح معنى (الحكم بما أنزل الله) .. فبعضهم يفهم منه القضاء وبعضهم يقصره على السلطة التنفيذية أو التشريعية .. والواقع أنه يشمل هذا كله ولكن معناه أوسع من ذلك .

ونعود فنقول إن (الحكم بما أنزل الله) يشمل الحكم على التصورات والأفعال وهــذا يــشمل العقائــد والقــيم والموازين ، والعبادات والمعاملات والأخلاق .. وإذا كان تقرير الحكم في الأفعال وينشأ عنه التــشريعات التنظيميــة

للفرد والمجتمع والدولة هو الذي تمارسه اليوم السلطة التشريعية وتطبقه كل من السلطة التنفيذية والقضائية فإن تقريــر الحكم في التصورات هذا الذي تمارسه اليوم وتقوم بتنفيذه أجهزة التوجيه والإعلام –أو السلطة الرابعة– .. أمــا في الإسلام فإن الحاكمية كلها لله عزَّ وجلَّ في جميع الميادين المذكورة وهذا هو مقتضى قوله تعــالى : ﴿**إِنِ الْحُكْــمُ إِلاَّ لِلَّه**﴾ بإطلاقه وعمومه .

نسأل الله عزَّ وجلَّ السداد والرشاد وهو المستعان والمعين .

الباب الأول : ما هو الإسلام

الحلقة الأولى

معنى الدين وحد الإسلام وشرط الإيمان

الدرس الأول

لا بد من تحديد معنى الدين وحد الإسلام وشرط الإيمان[٢]

إنّ الأساس الذي تقوم عليه حياة الفرد المسلم وحياة المجتمع المسلم هو تحديد معنى الدين وحد الإيمــان وشــرط الإسلام ، وربط كل الأنظمة والتشريعات التي تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع بذلك المعنى المحدد للدين وهذا التعريف المضبوط للإيمان والإسلام .

إنّ الدين هو النظام الذي قرره الله للحياة البشرية بجملتها ، والمنهج الذي يسير عليه نشاط الحياة برمتها والله وحده هو صاحب الحق في وضع هذا المنهج بلا شريك . والدين هو الإتباع والطاعة للقيادة الربانية الــتي لهــا وحدها حق الطاعة والإتباع ، ومنها وحدها يكون التلقي ، ولها وحدها يكون الاستسلام .. فــالمجتمع المــسلم مجتمع له قيادة خاصة –كما له عقيدة خاصة وتصور خاص– قيادة ربانية متمثله في رسول الله ﷺ وفيما يبلِّغه عن ربه مما هو باق بعده من شريعة الله ومنهجه . **وتبعية هذا المجتمع لهذه القيادة هي التي تمنحه صفة الإسلام وتجعــل منه (مجتمعاً مسلماً) . وبغير هذه التبعية المطلقة لا يكون (مسلماً) بحال** . وشرط هذه التبعية هو التحــاكم إلى الله والرسول ورد الأمر كله إلى الله والرضى بحكم رسوله وتنفيذه مع القبول والتسليم .

وتبلغ النصوص القرآنية في بيان هذه الحقيقة وتقرير هذا الأصل مبلغاً حاسماً جازماً ، لا سبيل للجدال فيــه ، أو الاحتيال عليه ، أو تمويهه وتلبيسه ، لأنها من القوة والوضوح والحسم بحيث لا تقبل الجدال .

وتقرير هذا المبدأ الأساسي يتمثل في نصوص كثيرة في القرآن الكريم :

يتمثل على وجه الإجمال في مثل قوله تعالى :

﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ... ﴾ [النساء : ٣٦] ، وفي مثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ... ﴾ [النساء : ٤٨]

ويتمثل على وجه التخصيص والتحديد في مثل قوله تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّـهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الـشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَـصُدُّونَ عَنْـكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا مِـنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۞ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾** [النساء : ٥٩-٦٥] وفي مثل قوله تعالى : ﴿ **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَـا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء : ١١٥]

وهكذا يتحدد الدين ، وحد الإيمان وشرط الإسلام ونظام المجتمع المسلم ومنهجه في الحياة . وهكـذا لا يعـود الإيمان مجرد مشاعر وتصورات ولا يعود الإسلام مجرد كلمات وشعارات ، ولا مجرد شعائر تعبدية وصلوات .. إنمـا هو إلى جانب هذا وذلك ، وقبل هذا وذلك يحكم ومنهج يتحكم وقيادة تطاع ، ووضع يستند إلى نظـام معـين ، ومنهج معين وقيادة معينة ، وبغير هذا كله لا يكون إيمان ولا يكون إسلام ولا يكون مجتمع ينسب نفسه إلى الإسلام

نتيجة

ويترتب على إقرار هذا المبدأ الأساسي أن تكون التنظيمات الاجتماعية كلها في المجتمع -شأنها شـأن الـشعائر التعبدية- مرتكنة إلى هذا الأصل الكبير ، مستندة إلى معنى الدين وحد الإيمان وشرط الإسلام . فهي ليـست مجـرد تنظيمات وتشريعات . إنما هي مقتضى الإيمان بالله والاعتراف بألوهيته وإفراده بالألوهية والتلقي من القيـادة الـتي يحددها .

ومن ثم نرى كل التشريعات والتنظيمات في القرآن الكريم تستند إلى هذه الجهة وينص في أعقابها نصاً في هــذه الحقيقة :

فالآيات التي تحض على رعاية أموال اليتامى وتبين طريقة التصرف في أموالهم تنتهي بالتذكير بالله وحــسابه ﴿ ... **وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ [النساء : ٦] وتوزيع أنصبة الميراث في الأسرة يجيء وصية من الله ﴿ **يُوصِــيكُمُ اللَّــهُ فِــي أَوْلادِكُمْ** ... ﴾ [النساء : ١١]﴿ ... **فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ** ... ﴾ [النساء : ١١] .. وتنتهي تشريعات الإرث بهذا التعقيب .. ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَــوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ [النــساء : ١٣-١٤] وفي تشريعات الأسرة وتنظيم المهور والطلاق وما إليها ترد مثل هذه التعقيبات ﴿ ... **وَعَاشِرُوهُنَّ بِــالْمَعْرُوفِ فَــإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ١٩] .. ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّــسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** ... ﴾ [النساء : ٢٤] .. ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [النساء : ٢٦] ﴿ ... **فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا** ﴾ [النساء : ٣٤] ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ... ﴾ [النساء : ٣٦]تــسبق في الآيــة الوصــية بالإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين .. إلخ .

وهكذا ترتبط سائر التنظيمات والتشريعات بالله وتستمد من شريعته وترجع الأمور كلها إلى هذه القيادة التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع .

---

(١) يراجع في تفسير هذه المصطلحات (المصطلحات الأربعة في القرآن) للأستاذ المودودي فهو يتناولها بدراســة موضــوعية لغويــة وأصولية لا تبقي مجالاً للشك في معانيها الحقيقية .

(٢) مقدمة تفسير سورة النساء م٢ ج٢ ص(٢١٥-٢٢٠) من الظلال